علاقة الكون بخالقه

١- الكون كله يسبح لله -عز وجل-، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [سورة النور، آية: ٤١].

وقال تعالىٰ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [سورة الإسراء، آية: ٤٤].

وطالما أن الكون يُسَبِّحُ رَبَّه ويَحمَد خالِقَه الحَقَّ، فإن أيَّ اعتداء عليه أو تصرُّف فيه بغير حق يُعَدُّ عَبَثًا وطُغْيانًا يؤدي حتمًا إلىٰ الفساد، وينبغي أن يُجَرَّمَ صاحبُهُ؛ لأن أيَّ اعتداءٍ علىٰ الكَوْنِ يُعدُّ اعتداءً علىٰ حق الإنسان في الحياة.

والمسلم بهذا التصَوُّر يحترِم جميعَ المخلوقات أصغرِها وأعظمِها؛ لأنه يراعي فيها عظمةَ مُوْجِدِها ومُدَبِّرِها، وقدرةَ من تَعَبَّدَهَا بالتسبيح والسجود.

٢- والكون يشارك الإنسان في الطاعة والتسبيح، قال تعالىٰ:

﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ﴾ [سورة الأنبياء، آية: ٧٩].

قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [سورة سبأ، آية: ١٠].

فنَبِيُّ اللهِ داود عليه السلام الذي جعله الله خليفة في الأرض، وآتاه الحُكمَ والعلم، ورزقه الحكمة، وأمره أن يحكم بالحق فَحَكَمَ- كان جزاؤه أن سخَّرَ الله له الجماد والحيوان تسخيرًا خاصًا، فكان إذا سبَّح داودُ أجابته الجبال، وكان عليه السلام إذا وجد فَتْرَةً أمَرَ اللهُ تعالىٰ الجبالَ فسبَّحَتْ فيزداد نشاطًا واشتياقًا.

٣- وقد خاطب الحق سبحانه وتعالىٰ كثيرًا من المخلوقات غير الإنسان، فأَوْحَىٰ إلىٰ النَّحل، قال تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ﴾ [سورة النحل، الآيتان: ٦٨-٦٩].

وأَمَرَ الأرضَ والسماءَ، قال تعالىٰ: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ [سورة هود، آية: ٤٤].

وجعل للأرض والسماء اختيارًا، فقال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ

دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [سورة فصلت، آية: ١١].

وعَرَض الأمانةَ على السموات والأرض والجبال، وجعل لهم اختيارًا، فَرَفَضْن تَحَمُّلَ الأمانة، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [سورة الأحزاب، آية: ٧٢].

وكل ذلك إنما يعكس احترام الكائنات في التصور الإسلامي علىٰ المستوىٰ المادِّي والوجداني. ومن هذا المُنطلَق يتصرف المسلم مع الأرض والسماء وكل المخلوقات باحترام ورحمة، تدفعه أن يحافظَ عليها ولا يهمل وجودَها لا من الناحية المادية ولا من الناحية المعنوية.

عَلاقة الإنسان بالكون

تقوم العَلاقة بين الإنسان والكون على التوافق والانسجام، ومنذ هَبَطَ الإنسان إلى الأرض وقد ارتبط تطوُّرُه العقليُّ والحضاريّ بحُسنِ توافقه وتَكَيُّفِه مع البيئة والكون، وحُسنِ استخدامه وانتفاعه بمفردات الحياة. فلا يَحِقُّ له بأيِّ حالٍ الإساءة إليه، بل يجب عليه احترامه ورعايته.

والمسلم خاصة يتعامل مع مخلوقات الله من مُنطلَقِ الشعور بالمساواة معها والمشاركة في العبودية لإلهٍ واحد، وترتبط علاقاتُه بغيره بِمَدَى تَعَلُّقِهِ والتِفاتِه إلى ربّه، فهو يتوجه بالحب إلى الله ومن خلال ذلك الحب يتوجه بالحب إلى ما أبدع وصنع؛ ولذلك نراه يستوي عنده ضعفُ المخلوقات وقوتُها، حقارتُها وعظمتُها؛ لأن نظره لا يتعلق بها بل يتعلق بخالقها القويِّ الحكيم. فالمسلم يُقَدِّسُ من عالَمِ الأشياء: المصحفَ، والكعبةَ، وقبرَ النبي محمد ﷺ ونحوها؛ لمكانتها عند الله عز وجل، وتقديسُهُ لها يجمع بين الاحترام والحب.

١- ولقد أعطى النبي ﷺ أصحابه درسًا في حُبِّ الجَماد

والتفاعل معه ومُجاوبته حينما حَنَّ إليه الجِذع ومال، فَعَنْ جَابِرٍ: «كَانَ الْمَسْجِدُ مَسْقُوفًا عَلَى جُذُوعٍ مِنْ نَخْلٍ، فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا خَطَبَ يَقُومُ إِلَى جِذْعٍ مِنْهَا، فَلَمَّا صُنِعَ لَهُ الْمِنْبَرُ، وَكَانَ عَلَيْهِ، فَسَمِعْنَا لِذَلِكَ الْجِذْعِ صَوْتًا كَصَوْتِ الْعِشَارِ، حَتَّى جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا، فَسَكَنَتْ»[1].

ومن الناس بل ومن المؤمنين مَن قلبُه ونفسه أكثر قسوةً من الجِذع فلا تحنُّ لرسول الله ﷺ ولا تَئِنُّ لفِراقه كما فعل.

٢- وعندما مَرَّ النبي ﷺ على جبل أُحُد، وعلى الرغم من أنه كان موطنًا أصاب المسلمين فيه قَرْحٌ وأصاب النبيَّ جُرْحٌ، واستشهد عليه عمه حمزة بن عبد المطلب فحزن النبي لذلك- إلا أنه أشار إليه وقال: «هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ»[2].

فالجبل أحبَّ المسلمين، والمسلمون يحبون هذا الجبل، على الرغم من أن ما حدث في موقعة أُحُد كان أدعى أن يتشاءم المسلمون منه.

---

(١) أخرجه البخاري: ١٣١٤/٣ برقم (٣٣٩٢).

(٢) متفق عليه، البخاري: ١٠٥٨/٣ برقم (٢٧٣٢)، ومسلم: ١٠١١/٢ برقم (١٣٩٣).

وفي موقف آخر مع جبل أُحُدٍ نَجِد النبيَّ ﷺ يَغْمِزُهُ برجلِه حينما اهتزَّ من تحته، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَىٰ أُحُدٍ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ، فَرَجَفَ بِهِمْ، فَضَرَبَهُ بِرِجْلِهِ قَالَ: «**اثْبُتْ أُحُدُ، فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدَانِ**»[1].

٣- ولم يكن هذا الأمر من التفاعل مع الجماد في البيئة الإنسانية مقصورًا في حياة رسول الله ﷺ بعد بعثته، بل وقبلها فقد قال ﷺ: «**إِنِّي لأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ، إِنِّي لأَعْرِفُهُ الآنَ**»[2].

فالنبي ﷺ يَذْكُر أنه لم يتجاهل الحَجَرَ بعد البَعثة، بل ظلَّ يَعرِفه ويتعلق به، ليس إلا أنه مخلوق لله أحبَّه وعظَّمه، وكان يُسَلِّمُ عليه قبل بَعثته مُبَشِّرًا له، ومُعْلِمًا بما سَيُكَلَّفُ به النبيُّ من تَحَمُّلِ الرسالة وأدائها.

٤- ومثل ذلك أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حِينَ أَرَادَهُ اللهُ بِكَرَامَتِهِ وَابْتَدَأَهُ بِالنُّبُوَّةِ كَانَ إِذَا خَرَجَ لِحَاجَتِهِ أَبْعَدَ حَتَّىٰ تَحَسَّرَ عَنْهُ الْبُيُوتُ، وَيُفْضِي

(١) أخرجه البخاري: ٣/١٣٤٤ برقم (٣٤٧٢)، ورقم (٣٤٨٣) و(٣٤٩٦).
(٢) أخرجه مسلم: ٢/١٧٨٢ برقم (٢٢٧٧).

إِلَىٰ شِعَابِ مَكَّةَ وَبُطُونِ أَوْدِيَتِهَا، فَلَا يَمُرّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِحَجَرٍ وَلَا شَجَرٍ إِلَّا قَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ[1].

٥- وفي ليلة الجِنّ التي خرج فيها النبي ﷺ مع عبد الله بن مسعود، فاجتمع نفر من الجن يستمعون القرآن ثم انصرفوا إلى قومهم منذِرين، سُئل ابنُ مسعود من أخبر رسول الله بحضورهم فقال: آذَنَتْهُ بِهِمْ شَجَرَةٌ[2].

٦- ولقد نَبَع الماء بين أصابعه الشريفة ﷺ وسَبَّح الطعام بين يديه فسمعه أصحابه، فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: كُنَّا نَعُدُّ الآيَاتِ بَرَكَةً، وَأَنْتُمْ تَعُدُّونَهَا تَخْوِيفًا، كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَقَلَّ الْمَاءُ فَقَالَ: «اطْلُبُوا فَضْلَةً مِنْ مَاءٍ». فَجَاءُوا بِإِنَاءٍ فِيهِ مَاءٌ قَلِيلٌ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي الإِنَاءِ، ثُمَّ قَالَ: «حَيَّ عَلَى الطَّهُورِ الْمُبَارَكِ، وَالْبَرَكَةُ مِنَ اللهِ» فَلَقَدْ رَأَيْتُ الْمَاءَ يَنْبُعُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِ رَسُولِ اللهِ ﷺ،

---

(١) أخرجه الحاكم: ٤/٧٩ برقم (٦٩٤٢)، وقال الهيثمي في «مَجمَع الزوائد» ٨/٤٦٦: عَنْ عَلِيٍّ -رضي الله عنه- قَالَ: «خَرَجْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَجَعَلَ لَا يَمُرُّ عَلَى حَجَرٍ وَلَا شَجَرٍ إِلَّا سَلَّمَ عَلَيْهِ» رواه الطبراني في «الأوسط»: ٥/٣٢٢ برقم (٥٤٣١)، والتابعي أبو عِمَارَة الْخَيْوَانِيّ لم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.

(٢) متفق عليه، البخاري: ٣/١٤٠١ برقم (٣٦٤٦)، ومسلم: ١/٣٣٢ برقم (٤٥٠).

وَلَقَدْ كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وَهُوَ يُؤْكَلُ[1].

٧- والذِراع المَصْلِيَّة[2] تحدَّثت لرسول الله ﷺ تُحَذِّرُه من السُّم الذي دسَّته اليهوديةُ فيها، فَإِنَّ يَهُودِيَّةً مِنْ أَهْلِ خَيْبَرَ سَمَّتْ شَاةً مَصْلِيَّةً ثُمَّ أَهْدَتْهَا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الذِّرَاعَ فَأَكَلَ مِنْهَا وَأَكَلَ رَهْطٌ مِنْ أَصْحَابِهِ مَعَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ**». وَأَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ فَدَعَاهَا فَقَالَ لَهَا: «**أَسَمَمْتِ هَذِهِ الشَّاةَ؟**». قَالَتِ الْيَهُودِيَّةُ: مَنْ أَخْبَرَكَ؟ قَالَ: «**أَخْبَرَتْنِي هَذِهِ فِي يَدِي**» -لِلذِّرَاعِ-. قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: «**فَمَا أَرَدْتِ إِلَى ذَلِكَ؟**». قَالَتْ: قُلْتُ: إِنْ كَانَ نَبِيًّا فَلَنْ يَضُرَّهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنِ اسْتَرَحْنَا مِنْهُ. فَعَفَا عَنْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ[3].

٨- وقد كان التُّراب سلاحًا ناجعًا استجاب لرسول الله ﷺ في غزوة بدر وغزوة حُنين فعشي أعينَ المشركين.

---

(١) أخرجه البخاري: ٣/١٣١٢ برقم (٣٣٨٦).

(٢) المَصْلِيَّة يعني: المشويَّة. يقال: صَلَيْتُ اللحم -بالتخفيف-: أي شَوَيْتُه فهو مَصْلِيٌّ. انظر: محمود بن عمر الزَّمَخْشَرِيّ، «**الفائق في غريب الحديث**»: ٢/٣١٠.

(٣) أخرجه أبو داود: ٢/٥٨١ برقم (٤٥١٠).

فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّ الْمَلأَ مِنْ قُرَيْشٍ اجْتَمَعُوا فِي الْحِجْرِ فَتَعَاقَدُوا بِاللاَّتِ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةِ الأُخْرَى وَنَائِلَةَ وَإِسَافٍ[1] لَوْ قَدْ رَأَيْنَا مُحَمَّدًا لَقَدْ قُمْنَا إِلَيْهِ قِيَامَ رَجُلٍ وَاحِدٍ فَلَمْ نُفَارِقْهُ حَتَّى نَقْتُلَهُ، فَأَقْبَلَتِ ابْنَتُهُ فَاطِمَةُ تَبْكِي، حَتَّى دَخَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَتْ: هَؤُلاَءِ الْمَلأُ مِنْ قُرَيْشٍ قَدْ تَعَاقَدُوا عَلَيْكَ لَوْ قَدْ رَأَوْكَ لَقَدْ قَامُوا إِلَيْكَ فَقَتَلُوكَ، فَلَيْسَ مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلاَّ قَدْ عَرَفَ نَصِيبَهُ مِنْ دَمِكَ. فَقَالَ: «**يَا بُنَيَّةُ أَرِينِي وَضُوءًا**». فَتَوَضَّأَ ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِمُ الْمَسْجِدَ، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا: هَا هُوَ ذَا. وَخَفَضُوا أَبْصَارَهُمْ وَسَقَطَتْ أَذْقَانُهُمْ فِي صُدُورِهِمْ، وَعَقِرُوا[2] فِي مَجَالِسِهِمْ فَلَمْ يَرْفَعُوا إِلَيْهِ بَصَرًا، وَلَمْ يَقُمْ إِلَيْهِ مِنْهُمْ رَجُلٌ، فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى قَامَ عَلَى رُءُوسِهِمْ، فَأَخَذَ قَبْضَةً مِنَ التُّرَابِ فَقَالَ: «**شَاهَتِ الْوُجُوهُ**». ثُمَّ حَصَبَهُمْ بِهَا فَمَا أَصَابَ رَجُلًا مِنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْحَصَى حَصَاةٌ إِلاَّ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ كَافِرًا[3].

وعن العبّاس بنِ عبد المُطَّلِب: أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَصَيَاتٍ فَرَمَى بِهِنَّ وُجُوهَ الْكُفَّارِ ثُمَّ قَالَ: «**انْهَزَمُوا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ**». فَوَاللهِ مَا هُوَ

---

(١) نائلة وإساف: صنمان. انظر: ابن قتيبة، «**غريب الحديث**»: ١٩٢/٢.

(٢) العَقَر: أن تُسلمَ الرِّجْلَ قوائِمُهُ من الخوف، وقيل: هو أن يفجأه الرَّوع فيدهش. انظر: ابن الأثير، «**النهاية في غريب الحديث والأثر**»: ٢٧٣/٣. المكتبة العلمية، بيروت.

(٣) أخرجه أحمد في «**المُسند**»: ٤٨٧/٤، برقم (٢٧٦٣).

إِلاَّ أَنْ رَمَاهُمْ بِحَصَيَاتِهِ فَمَا زِلْتُ أَرَىٰ حَدَّهُمْ كَلِيلًا وَأَمْرَهُمْ مُدْبِرًا[1].

وقال سَلَمَة بن الأَكْوَع وقد شَهِدَ مع رسول الله حُنَيْنًا: فَلَمَّا غَشُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ نَزَلَ عَنِ الْبَغْلَةِ، ثُمَّ قَبَضَ قَبْضَةً مِنْ تُرَابٍ مِنَ الأَرْضِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَ بِهِ وُجُوهَهُمْ فَقَالَ: «شَاهَتِ الْوُجُوهُ». فَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْهُمْ إِنْسَانًا إِلَّا مَلأَ عَيْنَيْهِ تُرَابًا بِتِلْكَ الْقَبْضَةِ فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ[2].

٩- ولم يكن تفاعل عالم الجماد مع رسول الله ﷺ مقصورًا على العالم الأرضي، بل والسَّماوِيّ، فنجدُ القمرَ ينشقُّ نصفين معجزةً له؛ فَإِنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً فَأَرَاهُمْ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ[3].

قال الخَطّابي: انشقاق القمر آية عظيمة لا يعادلها شيء من آيات الأنبياء؛ لأنه ظهر في ملكوت السماء، والخَطْبُ فيه أعظم، والبرهان به أظهر؛ لأنه خارج عن جملة طباع ما في هذا العالم من العناصر[4].

---

(١) أخرجه مسلم: ٣/١٣٩٨ برقم (١٧٧٥).

(٢) أخرجه مسلم: ٣/١٤٠٢ برقم (١٧٧٧).

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري: ٣/١٣٣١ برقم (٣٤٣٨)، ومسلم: ٤/٢١٥٩ برقم (٢٨٠٢).

(٤) بدر الدين العَيْني، «عمدة القاري، شرح صحيح البخاري»: ١٦/٢٢٤، تحقيق: عبد الله محمود، دار الكتب العلمية، ط١- ٢٠٠١م.

١٠- وقد استجاب الله -تعالىٰ- لنبيه فسخَّرَ السماء والسحاب لاستسقاءه ﷺ من حينها، فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: أَصَابَتِ النَّاسَ سَنَةٌ[١] عَلَىٰ عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ فَبَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ قَامَ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ هَلَكَ الْمَالُ وَجَاعَ الْعِيَالُ، فَادْعُ اللهَ لَنَا. فَرَفَعَ يَدَيْهِ، وَمَا نَرَىٰ فِي السَّمَاءِ قَزَعَةً[٢]، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا وَضَعَهَا حَتَّىٰ ثَارَ السَّحَابُ أَمْثَالَ الْجِبَالِ، ثُمَّ لَمْ يَنْزِلْ عَنْ مِنْبَرِهِ حَتَّىٰ رَأَيْتُ الْمَطَرَ يَتَحَادَرُ[٣] عَلَىٰ لِحْيَتِهِ ﷺ، فَمُطِرْنَا يَوْمَنَا ذَلِكَ، وَمِنَ الْغَدِ، وَبَعْدَ الْغَدِ، وَالَّذِي يَلِيهِ، حَتَّىٰ الْجُمُعَةِ الأُخْرَىٰ، وَقَامَ ذَلِكَ الأَعْرَابِيُّ -أَوْ قَالَ: غَيْرُهُ- فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، تَهَدَّمَ الْبِنَاءُ وَغَرِقَ الْمَالُ، فَادْعُ اللهَ لَنَا. فَرَفَعَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا، وَلاَ عَلَيْنَا**». فَمَا يُشِيرُ بِيَدِهِ إِلَىٰ نَاحِيَةٍ مِنَ السَّحَابِ إِلاَّ انْفَرَجَتْ، وَصَارَتِ الْمَدِينَةُ مِثْلَ الْجَوْبَةِ[٤]، وَسَالَ الْوَادِي قَنَاةُ شَهْرًا، وَلَمْ يَجِئْ أَحَدٌ مِنْ نَاحِيَةٍ

---

(١) (سَنَة): هي القَحْطُ والجَدْب.

(٢) (قَزَعَة): سحابة صغيرة.

(٣) (يتحَادَر): ينزل ويقطر.

(٤) (الجَوْبَة): هي الحفرة المستديرة الواسعة، وكل منفتق بلا بناء جوبة، والمراد: أي حتىٰ صار الغيم والسحاب محيطًا بآفاق المدينة. انظر: ابن الأثير، «**النهاية في غريب الحديث والأثر**»: ١/٣١٠.

إِلاَّ حَدَّثَ بِالْجَوْدِ. وفي رواية: وَخَرَجْنَا نَمْشِي فِي الشَّمْسِ[1].

فالجماد له احترامه في تصور المسلم للوجود، وقد تعلَّقت كثير من العبادات بالمكان والزمان، وأوضح مثال على ذلك حركة المسلم في طوافه حول الكعبة، فإنها حركةٌ تُشبِه كثيرًا حركةَ النجوم والأجرام السماوية في أفلاكها حول مركزها، وتُشبِه أيضًا حركة الإلكترونات في مساراتها حول النواة داخل الذرة، مما يعكس صورةً رمزيةً لوَحدة البناء بين أعظم المخلوقات وأدقِّها، فينطق بأنه سبحانه خالق كل شيء، وأن الكون عبارة عن مسجد كبير اشتركت فيه الكائنات سجودًا وتسبيحًا لخالقها.

والإنسان وجميع الموجودات خاضعون لقانون واحد وسُنَّةٍ واحدة تتحكم في تَحَرُّكِهِم وسُكُونِهِم، وهذا النظام يعبر عن وَحدة الخالق، وتظهر فيه سُنَنُ الله في خلقه. فلكل موجود ممكن دورة حياة، تبدأ بالوجود ثم النماء ثم الضُّمُور فالموت، وهو أمر يصيب كل شيء من حولنا، سواء في ذلك الجماد والحيوان والإنسان، حتى النجوم والمجرات لها أعمار وآجال، بانتهائه تدخل في دورة حياة كائنات أخرى، وتفقد صورتها الأولى، وتتحول إلى صُوَرٍ أخرى متعددة.

---

(١) أخرجه البخاري: ١/٣١٥ برقم (٨٩١).

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [سورة الزمر، آية: ٢١].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [سورة الروم، آية: ٥٤].

فالموجودات تتشابه في أطوار التكوين وتتابعها عليها بين الضعف والقوة والنقص والكمال، ولكل موجود أَجَل وعُمر مُقَدَّر، لا يتقدم عليه لحظة ولا يتأخر، ينتهي دورُه في الكون بانتهاء أجله.

وكذلك فهناك تشابه في التكاثر بين المخلوقات، حيث خلق الله -سبحانه وتعالى- من كل شيء زوجين متجاذبين تتولد الطاقة أو الحياة من التقائهما، فالحياة كلها تعتبر آية ساطعة على التوحيد تظهر على وجه الكائنات صغيرها وكبيرها.

قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الذاريات، آية: ٤٩].

عَلاقَةُ التَّسْخِير

إن الإسلام حرَّرَ الإنسان من عبودية عالم الأشياء، وجعله يتحرر من رهبتها أو مراقبتها بِتَوَجُّس، فأصبح يتعامل معها من منظور السلطة والسيادة، فلا يُفَوِّتُ أيَّ فرصة للانتفاع بما سخَّرَه الله فيها.

والإنسان لا يستطيع أن يصلَ من التأمل في الكون إلىٰ معرفة نظامه وقوانينه إلا إذا وَثِقَ بنفسه أولًا، وآمن بأن الكون المشاهَدَ خاضعٌ لإدراكه وبحثه، وبأن ظواهره ليست بالشيء المُبهَم الغامض الذي لا يُفَسَّر، وبأن في مقدوره الاستفادةَ من الكون واستغلالَ خيراته علىٰ أوسع نطاق لتأمين حياته ورفاهيتها.

وتأكيدُ القرآن علىٰ أن الكون كلَّه مسخَّرٌ للإنسان هو في نفس الوقت تأكيد علىٰ روح المنهج العلمي الصحيح، الذي يحاول دائمًا استكشافَ ما هو مجهولٌ من هذا الكون وظواهرِه علىٰ أساسٍ من الثقة بقدرة الإنسان وبالعلم في مواجهة الطبيعة[1].

---

(١) أبو الوفا التفتازاني: «**الإنسان والكون في القرآن**»، مجلة عالم الفكر، المجلد الأول، العدد الثالث، ص١٠٧.

فالإنسان جزء من الكون، لكنه تميز عليه بعَلاقته الخاصة مع الخالق، فهو المُكَلَّف بحمل الأمانة التي شَقَّ على السموات والأرض والجبال تحمُّلها؛ لأنها مسئولية، فارتضت الكائنات أن تكون مُسخَّرَةً للإنسان يُسْأَلُ هو عنها.

وقد تميَّز الإنسان أيضًا على بقية المخلوقات بأنه خُلِقَ مُعَدًّا لاستيعابها معرفيا، فباستطاعته أن يَنقُلَ العالَمَ الخارجي في صورته الكَمِّيَّة والكَيفِيَّة إلى عالَمه الداخلي، فاستحق بقدرته المعرفية أن يحمل أمانةَ الخلافة.

والملكات والقدرات التي مُنِحَهَا الإنسانُ وفُضِّلَ بها إنما هي ليتمكنَ من الاستفادة بما سُخِّرَ له في الكون من منافع، ولم تكن للسيطرة على الكون والتعالي عليه، والشعورِ بالسيادة المُطلَقة فيه، فإن تلك القدرات التي وُهِبت للإنسان لتُمَكِّنَه من فهم وإدراك سُنن الله المودعة سَلَفًا في كونه، وبمعرفتها يتمكن من الانتفاع بخيرات الكون التي سخَّرَها الله له.

إذن فليست ملكاتُ الإنسان وقدراتُه هي التي سَخَّرَتْ له الكونَ ومَكَّنَتْهُ منه، ودليل ذلك:

١- أنا نرى أضعف الخلق كالذباب يمكنه أن يخترق كلَّ الحُجُز

ويصل إلى الإنسان فيسلبه شيئًا لا يستطيع استنقاذه منه، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ [سورة الحج، آية: ٧٣].

٢- وكذلك نرى أضعف الناس جسمًا كالطفل الصغير وأضعفهم عقلًا كالمجنون يستطيع التحكم فيما سُخِّرَ للإنسان نفعه كالماء والحيوانات الضخمة وغيرها، تنفعل له وتستجيب لقياده لا لقدرة بدنية أو عقلية فيه.

٣- وقد تنفعل الطبيعة مع الإنسان دون قصد منه، كأن يمر في طريق فتطأ قدمه بذرة فتصير شجرة فيأكلها حيوان فيصيده الإنسان فيأكله، فيجعله الله سببًا في حياة دون أن يدري ذلك.

ونخلص من ذلك بأن الكون سُخِّرَ للإنسان بإرادة الله وقدرته، وليس لِتَمَيُّزِهِ وقوته دَخْلٌ في ذلك التسخير.

٤- والطبيعة قد تنفعل بذاتها بإذن الله فتحافظ على قدرتها ونضارتها وجمالها، فحتى فترة وجيزة من التاريخ كان الإنسان يَعْثُرُ في الأرض على أماكن لم تطأها قدم إنسان من قبل، وقد حظيَت الطبيعة فيها بخيرات وحياة وجمال ينبهر به الإنسانُ.

مما يكشف للإنسان عن مُسَبِّبٍ أول وخالقٍ أعلى لهذه الأرض، أودع فيها القدرةَ على المحافظة على خيراتها ملايين السنين دون أن يعلم عنها إنسانٌ شيئًا.

٥- ويثبت التاريخُ والمشاهدات والتجارب عن حالات كثيرة تتخلف فيها مظاهر الكون عن سيطرة الإنسان وقبضته، فتنخرق السُّنَّة التي يظن الإنسان أنه أحاط بكل أسرارها واستنفذ جميعَ أسباب إقامتها، فالمؤمن يعلم أن مِن وراء ذلك إلهًا واحدًا، وأنه لا سلطان حقيقًا في الكون غير سلطانه، ولا قوة قاهرة غير قوته، ولا ملك إلا ملكه.

ويحكي لنا القرآن عن بعض الملوك المتجبرين والفراعنة في الأرض الذين ظنوا أن سلطانهم فوق كل قوة، قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [سورة الزخرف، آية: ٥١].

وكأن تسلطه على الأرض والماء في بقعة من الأرض يعطيه الحق في استعباد الناس. وقد سعى لاستعبادهم بكل سبيل، ولم يتصور أن يَخْرُجَ موسى وقومه على إرادته وبطشه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ

طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ [سورة القصص، الآيات: ٤-٦].

فكل القوانين الكونية أو التوقعات البشرية لَتُؤَكِّدُ أن فرعون منتصرٌ، فبعد أن تجبر في أرض مصر وتكبر وعلا أهلَها وقهرهم، حتىٰ أقروا له بالعبودية- فلا يمكن لموسىٰ ومن تبعه أن ينجو من بطشه، فضلًا أن يتحقق له ما وعده الله به. وأنجزه وعده، قال: (وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً) ولاة وملوكًا (وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ) نورثهم ملك آل فرعون في الأرض. (وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ)، ولولا أن تدخلت إرادة الله وقوته فقلبت الموازين وغيرت السنن في اتجاه نصرة الحق ونجاة أصحاب المنهج ما كانت تلك النتيجة.

ولا يمكن لإنسان العصر أن يستقر نفسيًا ويأخذ وجهته الصحيحة نحو إنجاز رسالته علىٰ الأرض- إلا إذا عرف حدوده مع خالق هذا الكون ومدبره، ذلك أن الكون كلَّه شأنٌ من شئون الله -تعالىٰ-: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [سورة آل عمران، آية: ١٠٩] فهو -تعالىٰ- خالق الكون بما فيه الإنسان،

وهو الذي ركَّب العقل في الإنسان ليُعَمِّرَ به الأرض لا ليدمرَها، وليَعرِف به خالقَه لا لِيُلْحِد، وحاوِلْ أن تضع الإنسانَ في إطار الكون كله وقوانينِه الحتمِيّة لا في إطار قدرته الخاصة المحدودة- لترىٰ أن ليس للإنسان قدرةٌ علىٰ توجيه مجرىٰ الحوادث الكونية وفقَ مشيئته؛ لأن هذا من شأن خالق الأشياء جميعًا ومدبرِها، وهو الله[1].

(١) المرجع السابق: ص١٣١.

العَلاقة بين الإنسان والأرض

إن العَلاقـة المُتـصوَّرة فـي المنظـور الإسـلامي بـين الإنـسان والأرض لَهِي أدعىٰ إلىٰ الألفة والارتباط بينهما فضلًا عن المحافظة والتنمية، أو الاقتصارِ علىٰ التفكُّر والتدبر، فالعَلاقةُ بين المسلم والأرض تدور في ثلاثة مستويات، أدناها وأقربها مستوىٰ الانتفاع بالتسخير: وهو ما يتعلق بالجسد، وأوسطها مستوىٰ التفكُّر والاعتبار: وهو ما يتعلق بالعقل، وأعلاها مستوىٰ المحبة والأُلْفَة: وهو ما يتعلق بالرُّوح.

١- قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ﴿١٩﴾ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا﴾ [سورة نوح، الآيات: ١٧-٢٠].

فولاءُ الإنسان للأرض وحَنينُه إليها يُشبه حنينَ الابن إلىٰ أمه، فإنه منها خُلِق، ومن خيرها يأكل ويشرب، وفي أحضانها يُدْفَن.

٢- قال تعالىٰ: ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ﴾ [سورة طه، آية: ٥٥].

٣- وقال ﷺ: «وَتَحفَّظُوا مِنَ الأَرْضِ فَإِنَّهَا أُمُّكُمْ»[(١)].

٤- وَعَنْ عَائِشَةَ -رضي الله عنها- أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا اشْتَكَى الإِنْسَانُ الشَّيْءَ مِنْهُ أَوْ كَانَتْ بِهِ قَرْحَةٌ أَوْ جُرْحٌ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ بِإِصْبَعِهِ هَكَذَا -وَوَضَعَ سُفْيَانُ سَبَّابَتَهُ بِالأَرْضِ ثُمَّ رَفَعَهَا: «بِاسْمِ اللهِ تُرْبَةُ أَرْضِنَا بِرِيقَةِ بَعْضِنَا لِيُشْفَى بِهِ سَقِيمُنَا بِإِذْنِ رَبِّنَا»[(٢)].

قال الإمام النَّوَوِيُّ: قَالَ جُمْهُورُ الْعُلَمَاء: الْمُرَاد بـ«أَرْضِنَا» هُنَا: جُمْلَة الْأَرْض. وَقِيلَ: أَرْض الْمَدِينَة خَاصَّة؛ لِبَرَكَتِهَا. وَالرِّيقَة أَقَلُّ مِنْ الرِّيق. وَمَعْنَى الْحَدِيث: أَنَّهُ يَأْخُذ مِنْ رِيق نَفْسه عَلَى أُصْبُعه السَّبَّابَة ثُمَّ يَضَعهَا عَلَى التُّرَاب فَيَعْلَقُ بِهَا مِنْهُ شَيْءٌ، فَيَمْسَحُ بِهِ عَلَى الْمَوْضِع الْجَرِيح أَوْ الْعَلِيل، وَيَقُول هَذَا الْكَلَام فِي حَال الْمَسْح. وَاللهُ أَعْلَم.

وَقَالَ الْبَيْضَاوِيُّ: قَدْ شَهِدَت الْمَبَاحِث الطِّبِّيَّة عَلَى أَنَّ لِلرِّيقِ مُدْخَلًا فِي النُّضْج وَتَعْدِيل الْمِزَاج، وَتُرَابُ الْوَطَن لَهُ تَأْثِير فِي حِفْظ الْمِزَاج وَدَفْع الضَّرَر، فَقَدْ ذَكَرُوا أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْمُسَافِرِ أَنْ يَسْتَصْحِبَ تُرَابَ أَرْضه إِنْ عَجَزَ عَنْ اِسْتِصْحَاب مَائِهَا، حَتَّى إِذَا وَرَدَ الْمِيَاه

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير»: ٦٥/٥، برقم (٤٥٩٦)، وقال الهيثمي في «المَجْمَع» ٥٥٠/١: رواه الطبراني في «الكبير» وفيه: ابن لَهِيعَة، وهو ضعيف.

(٢) متفق عليه، البخاري: ٢١٦٨/٥ برقم (٥٤١٤)، ومسلم: ١٧٢٤/٤ برقم (٢١٩٤).

الْمُخْتَلِفَة جَعَلَ شَيْئًا مِنْهُ فِي سِقَائِهِ لِيَأْمَن مَضَرَّة ذَلِكَ[1].

إذن فهناك عاطفة تربط الإنسان بالأرض التي نشأ فيها وتربّىٰ، ولا نكير في ذلك، بل هو مما حَضَّ عليه الشرع وورد به، فَذَوو الفطرة السليمة يشعرون دائمًا بالشوق والحنين إلىٰ أوطانهم ولا يشعرون بالأُلفة أو الطمأنينة قدر ما يشعرون بها في بلادهم.

٥- والقرآن يُصوِّر عَلاقة الأُلْفَة والمحبة التي تنشأ بين الأرض والسماء وبين الإنسان، حيث قال تعالىٰ: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ [سورة الدخان، آية: ٢٩].

وهذا انفعال بين الإنسان والأكوان، فقد روىٰ الطبري عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: أَتَىٰ ابْنَ عَبَّاسٍ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا ابن عَبَّاسٍ أَرَأَيْتَ قَوْلَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ فَهَلْ تَبْكِي السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ عَلَىٰ أَحَدٍ؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْخَلَائِقِ إِلَّا لَهُ بَابٌ فِي السَّمَاءِ مِنْهُ يَنْزِلُ رِزْقُهُ، وَفِيهِ يَصْعَدُ عَمَلُهُ، فَإِذَا مَاتَ الْمُؤْمِنُ فَأُغْلِقَ بَابُهُ مِنَ السَّمَاءِ الَّذِي كَانَ يَصْعَدُ فِيهِ عَمَلُهُ،

(١) النووي، «المنهاج، شرح صحيح مسلم بن الحجاج»: ١٤/١٨٥، المطبعة المصرية ط١- ١٩٣٠م، وابن حجر، «فتح الباري، شرح صحيح البخاري»: ١٣/١٧٦، تحقيق: أبو قتيبة نظر الفاريابي، دار طيبة ط١- ٢٠٠٥م.

وَيَنْزِلُ مِنْهُ رِزْقُهُ، بَكَى عَلَيْهِ، وَإِذَا فَقَدَهُ مُصَلَّاهُ مِنَ الْأَرْضِ الَّتِي كَانَ يُصَلِّي فِيهَا، وَيَذْكُرُ اللهَ فِيهَا بَكَتْ عَلَيْهِ، وَإِنَّ قَوْمَ فِرْعَوْنَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ آثَارٌ صَالِحَةٌ، وَلَمْ يَكُنْ يَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ مِنْهُمْ خَيْرٌ، فَلَمْ تَبْكِ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ»[1].

(١) أخرجه الطَّبَريّ في تفسيره «**جامع البيان، في تأويل القرآن**»: ٣٤/٢٢، تحقيق: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة ٢٠٠٠م، وذكره السيوطي في «**الدُّرّ المَنثور، في التفسير بالمأثور**»: ٢٧٤/١٣، دار الفكر- بيروت ١٩٩٣م.